

## أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة صياغة

### النظرة الإستشراقية للإسلام

أ. ياسين حامي

جامعة الأمير عبد القادر

---

هذا المقال يتضمن دراسة لأسلوب جديد ظهر في ما اصطلح عليه في الفكر الغربي بما بعد الحداثة، وهو أسلوب يمزج بين كل العلوم الإنسانية التي جاءت بها الحداثة الغربية، كما أن هذا المنهج يتفق مع الروح العامة لما بد الحداثة والتي تتميز بالثورة على الثبات وعلى التنظير، وعلى القوالب الفكرية والمنهجية التي أوجدتها الحداثة الغربية، وقد تم في هذا المقال تحليل أسلوب إدوارد سعيد في تطبيقه للنقد الثقافي على الصورة التي رسمها الاستشراق حول الإسلام، وكذلك الصورة النمطية التي صور بها الإعلام الغربي الإسلام بعد فترة السبعين من القرن العشرين .

This article includes a study of the new method appeared in what was termed in Western thought, including post-modernism, and is a method of combining all the humanities, which came out of Western modernity, and that this approach is consistent with the general spirit of what must modernity and which is characterized by the revolution on the stability and on endoscopy, and templates intellectual and methodological created by Western modernity, and have been in this article is the analysis method of Edward Said, in its application to criticism cultural picture painted by Orientalism about Islam, as well as the

stereotype that picture by the Western media to Islam after a period of the last quarter of the twentieth century.

#### مقدمة:

تسارعت التحولات الفكرية والنظرية في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين، وبصفة خاصة في الربع الأخير منه وفي بدايات القرن الواحد والعشرين، ومع هذا التحول فقدت الكثير من النظريات والأفكار التقليدية قيمتها، هذه النظريات والأفكار التي ارتبطت بما اصطلح عليه مؤرخوا الأفكار والفلسفات بعصر الحداثة، وقد تميزت الحداثة بالثبات والرتابة النسبية، والبحث عن ترسيخ القيم المادية والعلماوية المطلقة، وفق مناهج ثابتة اعتقد منظروها أنهم وصلوا بها إلى طرق تحصيل العلم اليقيني، مثل المناهج التجريبية والتطورية والبنائية والفيلولوجية، وقد خضعت دراسة ثقافات وأديان الشعوب في فترة الحداثة وبصفة خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين لهذه المناهج، ووصلت أبحاث الرواد ومدارسهم إلى نتائج مطلقة في نظرة الغربيين إلى ثقافات الشعوب وإلى أديانهم وحضاراتهم، وارتبطت هذه النظرة بالمد الاستعماري وبالمطلقية العلماوية الحداثية، وفي هذا السياق تصب أبحاث المستشرقين في وصفهم لثقافات الشرق وللدین الإسلامي والمسلمين بصفة خاصة، ومع تززع الثقة في مناهج الحداثة وعلومها بعد الحرب العالمية الثانية وبصفة خاصة في الربع الأخير من القرن العشرين ظهرت ضمن أساليب ما بعد الحداثة نظرية ما بعد الاستعمار، التي كان روادها من أصول شرقية رفضوا النظرة الحداثية للشرق ولثقافات شعوبهم الأصلية، وضمن هذا السياق يأتي منهج النقد الثقافي الذي اعتمد عليه إدوارد سعيد في نقده للاستشراق .

#### ترجمة إدوارد سعيد:

هو إدوارد وديع سعيد، ولد في القدس سنة 1935، وتوفي سنة 2003، وقد كان والداه من أتباع المسيحية الأرثوذكسية وكان أبوه حاملا للجنسية

الأمريكية، وقد انتقلت عائلته، في فترة صباه بين القاهرة والقدس، وتلقى تعليماً أولياً في القدس وفي الإسكندرية، ثم التحق بمدرسة أمريكية في لبنان، ثم تابع دراساته في الولايات المتحدة ليحصل على الدكتوراه في الإنجليزية والأدب المقارن من جامعة هارفارد، ليظهر على الساحة العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية كمفكر ومنظر لما بعد الحداثة، وقد كان حاملاً للجنسية الأمريكية، واشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية، اشتهر بمنهجه ما بعد الحداثي الذي اصطلح عليه بما بعد الكولونيالية، وقد ارتبط اسمه بالتنظير للقضية الفلسطينية، وكان له إسهامات معتبرة فكرية وعملية في محاولة حل هذه القضية، وقد اشتهر إدوارد سعيد بكتاب الاستشراق الذي طبق فيه أسلوب النقد الثقافي، مما أكسبه مكانة في الفكر العالمي حيث ترجم إلى العديد من اللغات وظهرت النقاشات حول محتواه ومضمونه ومنهجه، وقد ربط إدوارد بواسطة أسلوب النقد الثقافي بين الاستشراق الغربي وبين الطموحات الإمبريالية للدول الاستعمارية الغربية، فالاستشراق اكتسب مشروعته العلمية من القوة والسلطة السياسية الاستعمارية التي تسنده، وهذا ما يؤدي إلى فقدان الاستشراق لصفتي العلمية والموضوعية اللتين حاول رواه الانتساب إليهما، وقد اعتمد إدوارد سعيد في نقده الثقافي للاستشراق على أساليب ما بعد الحداثة التي استعملها ميشيل فوكو وجاك ديريدا، كما اعتمد على معرفته الموسوعية بأدبيات المستشرقين مما أكسب تحليله مصداقية علمية في الأوساط الأكاديمية الغربية رغم اختلاف بعض النقاد مع الأفكار التي تبناها إدوارد سعيد، ومما انتقد عليه بصفة خاصة التعميم المفرط وانتقاء العينات التي تخدم التوجه العام لإدوارد سعيد، كما كتب بعض كبار المستشرقين ردوداً على فكر إدوارد سعيد منهم ماكسيم رودنسون وجون مونتغمري واط، ورغم هذه الردود فقد وجدت أفكار إدوارد سعيد من يدعمها ويساندها من المثقفين من مختلف الجنسيات، كما أن أفكار إدوارد سعيد كان

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

لها تأثير ظاهر في إعادة صياغة التوجهات العامة والتنظير للأساليب الجديدة التي طبعت فكر ما بعد الحداثة، وقد طبق إدوارد سعيد أسلوب النقد الثقافي في كتابه *الاستشراق* <sup>(1)</sup> وكتابه *تغطية الإسلام*، وعالج في هذا المؤلف النظرة السلبية التي طبعت بها وسائل الإعلام الغربية نظرة الغربيين إلى الإسلام، هذه النظرة التي تصور الإسلام كعدو دائم، وكمصدر للمشاكل في منطقة حيوية تزود الغرب بمصادر الطاقة، وقد تعدى هذا الأسلوب في الخطاب ووسائل الإعلام ليصل إلى البحوث الأكاديمية التي تصب في نفس الاتجاه، وباستعمال النقد الثقافي يفكك سعيد الدوافع الحقيقية لهذا التوجه المعادي كما يفكك النظرة السطحية التي أدت إلى خلق هذا العدو الوهمي، والخلفيات الموجهة لهذا التبسيط، وقد تنوعت مجالات كتابات سعيد فقد كان مفكرا عاما يتناول بمقالاته مختلف الإشكالات الإنسانية المعاصرة، وقد أولى للقضية الفلسطينية اهتماما كبيرا فقد كان عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني، ودافع عن حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم وعن حق العودة للاجئين الفلسطينيين <sup>(2)</sup>.

**أسلوب النقد الثقافي في توجهات ما بعد الحداثة: النقد الثقافي مصطلح**

<sup>(1)</sup> - يقول دافيد بارسميان واصفا أثر كتاب الاستشراق في الفكر الغربي: "وفي موازاة نشاطه السياسي، تنهض إسهامات إدوارد سعيد الهائلة في حقل الإنسانيات، فبكتابه الاستشراق غير إدوارد سعيد الطريقة النمطية التي يقدمها الأدب الغربي للإسلام والعرب والشرق الأوسط، كما قام باستكشاف الطريقة التي يجري بها توظيف المعرفة للدفاع عن السلطة وإكسابها المشروعية، يعتبر كتابه *الثقافة والإمبريالية*، الذي ظهر عام 1993، والاستشراق من قمم إنجازاته الثقافي العظيم " إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة ( دار الآداب)، ص: 14.

<sup>(2)</sup> - أنظر مقدمة المترجم لكتاب: إدوارد سعيد، *تغطية الإسلام*، ترجمة: محمد عناني ( الطبعة الأولى؛ القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2005 ).

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشرافية للإسلام..أ. ياسين حامي

معاصر يرتبط بتوجهات ما بعد الحداثة<sup>(1)</sup> وقد برز هذا التوجه منذ سبعينيات القرن العشرين ويؤكد أتباع هذا الاتجاه على أن النقد الثقافي ليس منهجا واضح المعالم محدد الأركان والزوايا، بل هو طريقة في القراءة تعتمد على الجمع بين كل الآليات العلمية والفنية والثقافية والفلسفية وعلى التحليل النفسي وعلى الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، وهذا التوجه يتفق مع النظرة الثائرة على الثبات والتنظير الذي حاول تأطير الحقائق والمناهج في فترة الحداثة الغربية .

و كما نوع النقد الثقافي في أساليب القراءة وآلياتها وأوجهها فقد تنوعت مجالات عمله فشملت المجالات التقليدية للثقافة والمعرفة مثل الدراسات الاجتماعية والاستشراق، وكذلك الإشكاليات التي تواجه الإنسان المعاصر مثل الثقافة الإعلامية المرتبطة بالصوت والصورة ، والثقافة الأدبية والسنمائية المرتبطة بالروايات العلمية وبالخيال العلمي، لذا نجد تداخلا بين مصطلح النقد الثقافي ومصطلحات مثل التاريخانية الجديدة، ومثل ثقافة ما بعد الاستعمار

(1) - ما بعد الحداثة : يعبر مصطلح ما بعد الحداثة عن فترة من التاريخ الأوربي تميزت بتوجه عام إلى الإحباط وإلى الثورة على قيم الحداثة التي سادت الفكر الأوربي منذ عصر الأنوار، وقد شمل هذا المفهوم الجديد الذي ظهر في الربع الأخير من القرن العشرين كل نواحي الحياة فشمل الأدب والفن والنقد والفلسفة والتاريخ والدين والعمارة وغيرها، وقد ظهر التوجه في الغرب إلى ما بعد الحداثة إثر النتائج السلبية التي أفرزتها قيم الحداثة الغربية، وقد ظهرت هذه السلبيات بشكل جلي في القرن العشرين، مثل الأنظمة الشمولية الفاشية والنازية والحرب العالمية الثانية، وأمام هذه السلبيات ساد الفكر الغربي توجه عام نحو النفور من قيم الحداثة القائمة على الثبات والتناسق والكليات والقيم الثابتة، هذا النفور يفسر لنا سبب التوجه العام لما بعد الحداثة نحو التفكيك والتشكيك والنقد والاختلاف ورفض الأنساق الحداثية، وذلك في كل مناحي الحياة بما فيها العمارة والفن، للمزيد أنظر: بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة: عبد الوهاب علوب ( الطبعة الأولى؛ أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1995) .

ومثل صورة المرأة المعاصرة في وسائل الإعلام<sup>(1)</sup>.

وقد ارتبط النقد الثقافي بأسماء منظري ما بعد الحداثة في الغرب وعبر هؤلاء النقاد والمفكرون عن نزعة نحو التحرر من القوالب الحداثية الجامدة فتنوعت آراؤهم كما تنوعت أوطانهم، "حيث ظهر في فرنسا، رولان بارت، كلود ليفي شتراوس، ميشيل فوكو، لويس ألتوسير، جاك لاكان، بيير بورديو جاك دريدا، غريماس، وفي ألمانيا يورجن هابرماس، ثيودور أدورنو، والتر بنيامين، ماكس هوركهايمر، هربرت ماركوز، وفي الولايات المتحدة إدوارد سعيد، فكتور تيرنير، كليفود جرتيز، فريدريك جيمسون، وفي كندا ميتشيل ماكلون، إتش أنيس، نورثروب فراي، وفي إنجلترا : ليفيس، رايموند وليامز، ستيفارت هول، ريتشارد هوغارت، ماري دوغلاس، وليام إمبسون، وفي إيطاليا : أنطونيو غرامشي، وأمبرتو إيكو"<sup>(2)</sup>.

و من فروع النقد الثقافي نظرية ما بعد الاستعمار، هذه النظرية التي بحث أصحابها في أساليب الاستعمار في دراسة ثقافات الشعوب المستعمرة، هذه الأساليب التي تعتمد على ضم الآخر المستعمر إلى المنظومة المعرفية العلمانية التي سادت الفكر الغربي منذ القرن التاسع عشر، ويظهر التوجه الاستعماري في العلوم التي درست بها المجتمعات المستعمرة مثل الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا والاستشراق، فقد كان الغرض من هذه العلوم توفير المعلومات التي تمكن من السيطرة على الشعوب المستعمرة، وقد شكل النقد الثقافي لما بعد الاستعمار تحررا من المناهج التقليدية ودعوة إلى القبول بفكرة تعدد الثقافات، وتصب في هذا الإطار أعمال إدوارد سعيد خاصة في كتاب

(1) - للمزيد من التفصيل حول النقد الثقافي، أنظر فصل ذاكرة المصطلح من كتاب : عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ( الطبعة الثالثة ؛ الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 2005).

(2) - أنظر : بيتر بروكر، مرجع سابق .

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

الاستشراق، الذي كان له أثر كبير في إعادة صياغة توجهات الدراسات الشرقية، وإلى جانب إدوارد سعيد نجد أعمال فرانس فانون، وهومي بابا البريطاني من أصل إفريقي<sup>(1)</sup>.

و من أهم مميزات النقد الثقافي أنه يرفض القولية في صيغ منهجية ومعرفية جامدة، بل هو في تغير مستمر يرفض الثبات وهو تجديد نقدي عقلي يرفض الاستقطاب الإيديولوجي التقليدي الذي انهار مع ظهور العولمة ومع انهيار قطبية الاتحاد السوفياتي، وانهيار البنيوية كما انهارت مركزية الثقافة الغربية التي كانت تعتبر في عصر الحداثة النموذج الأعلى للإنسان وللحضارة الإنسانية، هذا الانهيار الذي فتح المجال للثقافات المحلية لتبدي خصوصيتها واستقلاليتها.

وقد قامت دراسات النقد الثقافي على التخلص من أشكال الهيمنة، وفي سبيل ذلك تقوم بتحليل الظواهر على المستويات السطحية والباطنية لتبحث عن المؤثرات والموجهات الواضحة والخفية وذلك في سبيل القضاء على كل أشكال الهيمنة والتوجيه والاستغلال، خاصة في المجتمعات الصناعية والتي يظهر فيها التوجيه الخفي للرأسمالية، ولدوائر النفوذ السياسي والاقتصادي وقد عبر إدوارد سعيد عن أسلوب التحرر الثقافي بقوله : " كلنا نعيش في مجتمع وأفراد جنسية ذات لغة أم وتقاليد ووضع تاريخي، إلى أي حد المثقفون هم خدم لهذه الوقائع، وإلى أي حد هم أعداء؟ الأمر نفسه صحيح بالنسبة لعلاقة المثقفين بالمؤسسات ( الجامعة، الكنيسة، النقابة المهنية ) وبالقوى العالمية، التي في زمننا انتقت النخبة المثقفة إلى درجة غير اعتيادية، والنتائج هي كما يصوغها ولفرد أوين، أن الكتاب يدفعون كل الناس، ويصرخون بالولاء للدولة، بالتالي في رأيي إن الواجب الثقافي الرئيسي هو البحث عن استقلالية نسبية من مثل هذه الضغوط، ومن هنا جاء وصفي لخصائص المثقف أنه منفي وهامشي

(1) - أنظر : عبد الله الغدامي، مرجع سابق .

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

وهاو ومؤلف لغة تحاول أن تقول الحقيقة للسلطة<sup>(1)</sup>.

وفي سبيل التخلص من الهيمنة، يصر أصحاب النقد الثقافي على التخلص من القولية المنهجية والمعرفية، فمصطلح النقد الثقافي يصلح عام مجاوز يدخل في كل مجالات المعرفة، سواء العلمية أو الشعبية أو الفلسفية أو الإنسانية، لذا نجد في النقد الثقافي الأدب والأنثروبولوجيا والنظريات الاجتماعية وغيرها<sup>(2)</sup>.

لقد ارتبط النقد الثقافي بظاهرة ما بعد الحداثة التي برزت في سبعينيات القرن العشرين وأنتجت أنماطا جديدة من النقد، منها الماركسية الجديدة والتاريخية الجديدة، ونقد الاستشراق والتكنولوجيا والمجتمع ووسائل الاتصال وأثرها في توجيه الثقافة الجماهيرية، والدراسات النسوية وغيرها، فقد قامت على مجاوزة البنيوية، ولم تكتف بالمجازة السلبية التي قامت بها التفكيكية بل سعى النقد الثقافي إلى إعادة صياغة البنيوية، وهذا ما يفسر مجاوزة النقد الثقافي لظاهر النص ومحاولة تفكيكه للوصول إلى البنى الأصلية التي تساهم في تكوين النص<sup>(3)</sup>.

### النقد الثقافي في كتاب الاستشراق:

وقد قام إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق بتطبيق النقد الثقافي على الاستشراق الغربي، ولم يكن دافعه في ذلك نقض النتائج التي وصل إليها الاستشراق، ولا الدفاع عن الشرق وعن الإسلام ومحو الصورة السلبية التي رسمها الاستشراق في أذهان الغربيين، بل كان دافعه مجاوزة الأسس الفكرية الغربية التي ترسخت في عصر الحداثة، ومجازة المنتج الفكري لهذه المرحلة

(1) - إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، ترجمة: حسام الدين خضور (بيروت: التكوين

للطباعة والنشر، 2003)، ص: 11.

(2) - المرجع نفسه.

(3) - أنظر: بيتر بروكر، مرجع سابق.



أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

وما خلفه من نتائج واقعية ربطت علاقات الدول الغربية بالدول الإسلامية، لذلك يعد كتاب الاستشراق ضمن دراسات ما بعد الحداثة التي اصطلح عليها بما بعد الكولونيالية، فقد حاول إدوارد سعيد نقد الأسس العلمانية التي ارتبطت بالاستشراق القديم، ونقد الأسس السلطوية للاستشراق المعاصر، وهذا العمل يصب في التوجه العام لما بعد الحداثة<sup>(1)</sup>.

وقد ركز إدوارد سعيد في نقده للاستشراق على كشف الأسس الفكرية المغلقة والتوجهات المقولبة التي أطرت عمل المستشرقين، وهدفه من ذلك هو تقويض أسس هذا الثبات الذي ارتبط بالإمبريالية الغربية، وبخلفيتها العلمية المرتبطة بالحداثة والعلمية وفلسفة الأنوار وبالفلسفة الوضعية، ولم يوجه إدوارد سعيد نقده إلى كشف التناقضات بين الخطاب الاستشراقي وبين الواقع الشرقي الذي قد لا يتفق مع النتائج التي وصل إليها المستشرقون، فلم يكن الغرض من كتاب الاستشراق الدفاع عن الشرق ورسم صورة مخالفة لتلك التي رسمها المستشرقون بل الغرض هو تقويض الأسس المطلقة الدوغمائية للاستشراق، فمناهج ما بعد الحداثة تقوم في عمومها على النفور من التنظير ومن الثبات، وهذا ناتج عن اليأس من العلموية التي نظر لها علماء وفلاسفة القرن التاسع عشر<sup>(2)</sup>.

وقد تعمق إدوارد سعيد في تحليل ارتباط رواد الاستشراق بالصراعات الفكرية التي سادت المنظومة الفكرية الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، "إننا نستطيع أن نفهم الجوانب الجوهرية لنظرية المستشرق الحديث وعمله والاستشراق في العصر الحاضر مستمد منها، لا باعتبارها معرفة موضوعية أصبحت متاحة فجأة عن الشرق، بل باعتبارها مجموعة من الأبنية

(1) - أنظر : إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة : محمد عناني (الطبعة الأولى ؛ القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع، 2006)، مقدمة المؤلف .

(2) - المصدر نفسه، فصل : أبنية الاستشراق وإعادة بنائها .

الموروثة من الماضي، بعد أن قامت بعض المباحث العلمية مثل فقه اللغة بإكسابها صبغة علمانية، وإعادة تنظيمها وتشكيلها، وهي المباحث التي كانت بدورها بدائل عن مذهب الأسباب الخارقة المسيحي أو بعض صوره بعد أن اكتسبت ثوبا طبيعيا إلى جانب تحديثها وإكسابها طابعا علمانيا، وقد نجح تكييف الشرق بوضعه في صورة نصوص وأفكار جديدة حتى يلائم هذه الأبنية الجديدة، لا شك أن بعض علماء اللغة والمستكشفين مثل جونز وأنكتيل قد ساهموا في الاستشراق الحديث ولكن ما يميز الاستشراق الحديث باعتباره مجالا أو مجموعة من الأفكار أو خطابا كان العمل الذي قام به جيل لاحق لجيل هؤلاء، وإذا استخدمنا حملة نابليون ( 1798 - 1801 ) باعتبارها أولى الخبرات التي مكنت الاستشراق الحديث من الظهور، فلنا أن نعتبر أن أبطالها الذين شقوا الطريق مثل ساسي ورينان ولين في مجال الدراسات الإسلامية هم الذين تولوا بناء هذا المجال وإنشاء تقاليد جديدة ... وكان ما فعله ساسي ورينان ولين يتمثل في إقامة الاستشراق على أساس علمي وعقلاني...<sup>(1)</sup>

ويرى إدوارد سعيد أن بيان الأسس العلمانية للاستشراق الحديث لا ينفي عنه الأصول الدينية ولا يخلص الأصول الفكرية العلمانية للاستشراق من الخلفيات الدينية التي تعتبر الأصول العلمانية إعادة صياغة طبيعية لها، وفي ذلك تحليل للأسس الحدائية للاستشراق، فيقول في هذا السياق، " لكن القول بأن هذه العناصر المترابطة تمثل اتجاها لإضفاء العلمانية لا يعني ببساطة إزالة الأنساق الدينية القديمة للتاريخ البشري ومصير الإنسان ونماذجه الوجودية، فالأمر أبعد ما يكون عن ذلك إذ أنها أعيد تشكيلها ونشرها وتوزيعها في الأطر العلمانية التي سبق لي تعدادها ... فذلك حقا ما فعله الاستشراق، بل وما كان عليه الاستشراق اعتبارا من نهاية القرن الثامن عشر، فإنه قد احتفظ بما يعتبر تيارا

(1) - إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة : محمد عناني ( الطبعة الأولى ؛ رؤية للنشر والتوزيع، 2006 )، ص : 210 .

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام.. أ. ياسين حامي

ثابتا في خطابه وهو الدافع الديني الذي أعيد تشكيله، أو المذهب الطبيعي للأسباب الخارقة...<sup>(1)</sup>

ويفكك إدوارد سعيد التقسيم الثنائي بين الشرق والغرب، هذا التقسيم الذي بنيت عليه علوم ومعارف، منها الاستشراق، ولكن التعمق في طبيعة هذا التقسيم الثنائي يبين علاقة المعرفة بالسلطة، فالمستشرقون الذين درسوا المجتمعات الشرقية وكتبوا عنها كانوا مدفوعين بقوة الهيمنة الاستعمارية، ولم يكن دافعهم هو اكتشاف الشرق ومجتمعاته، وهنا يفكك إدوارد سعيد معتمدا على النقد الثقافي العلاقة بين السلطة والمعرفة لتفكيك الهيمنة المعرفية التي طبعت أساليب المستشرقين، فالدافع الحقيقي للاستشراق هو الهيمنة الاستعمارية والمعرفة التي ادعاها الاستشراق لا تخرج في نظر إدوارد سعيد عن هذا الإطار<sup>(2)</sup>.

كما يستعمل إدوارد سعيد فكرة الهيمنة التي قال بها جرامشي، ليعين أن الدافع إلى الاستشراق هو البحث عن الهيمنة والسيطرة على الآخر الذي يختلق اختلاقا بدافع التأسيس للثقافة المسيطرة، وهذا ما حدث بين الاستعمار الغربي المتحضر والذي قابله الاستشراق بالشرق المتخلف الجاهل المتعصب، كما يركز إدوارد سعيد على الترابط الواقعي بين الاستشراق وبين السياسة الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، فالمستشرق الذي

(1) - المصدر نفسه، ص: 209 .

(2) - يقول إدوارد سعيد في ذلك: " وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه، والتسلط عليه، وقد انتفعت هنا بالفكرة التي طرحها ميشيل فوكو عن الخطاب، على نحو ما عرضها في كتابه علم آثار المعرفة وفي كتابه الآخر التأديب والعقاب، في تحديدي لمعنى الاستشراق باعتباره لونا من ألوان الخطاب فلن تتمكن مطلقا من تفهم المبحث البالغ الانتظام الذي مكن الثقافة الأوربية من تدبير أمور الشرق بل وابتداعه في مجال السياسة وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكرية والأيدولوجية والعلمية والخيالية في الفترة التالية لعصر التنوير..." المصدر نفسه، ص: 46.

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

يدرس المجتمعات الشرقية يكون مدفوعا علنا أو سرا بدافع السياسات الاستعمارية لبلاده .

وبعد تفكيك بنى الاستشراق يقترح إدوارد سعيد مفهوما غامضا مشوش المعالم كبديل عن الاستشراق يسميه الإنسانية، ويصر على هذه التسمية رغم حساسية هذا المصطلح في مناهج ما بعد الحداثة نظرا لارتباطه بالتنوير الغربي الذي اعتمد على مفهوم الأنسنة كمطلق يقابل مطلق اللاهوت المسيحي، ولكن مفهوم الأنسنة عند إدوارد سعيد غير محدد منهجيا وغير مقولب في قوالب ثابتة تماشيا مع التوجه العام لما بعد الحداثة، فيقول : " فكريتي في الاستشراق هي استخدام النقد الإنساني لتمهيد السبيل إلى مجالات جديدة من الصراع وتقديم تسلسل أطول من التفكير والتحليل، نستبدل به تلك النوبات القصيرة من الغضب الجدلي المانع للفكر الذي يحبسنا داخله، لقد سميت ما أحاول القيام به بالأنسنة كلمة أستمر في استخدامها بعناد رغم الاستبعاد المحققر للمصطلح من قبل ناقدني ما بعد الحداثة، أقصد بالأنسنة أولا كل المحاولات لحل القيود الفكرية المطروقة عند بليك لكي نستطيع استخدام عقولنا تاريخيا ومنطقيا بغرض الفهم التأملي، إضافة إلى ذلك تتعزز الأنسنة بشعورها التشاركي مع مفسرين آخرين وجمعيات أخرى وفترات، وبكلام آخر أوجز وبناء على ذلك لا يوجد ما يسمى بالإنساني المنعزل"<sup>(1)</sup> .

وقد جاء كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد في سنة 1978 مواكبا ومسرعا للتحويلات الجديدة التي عرفتھا الدراسات الاستشراقية، بعد تحول توجهات المؤسسات الاستشراقية بدءا من سنة 1973 نحو الدراسات الميدانية، وترك حقول المعارف الاستشراقية التقليدية، وهذا ما يفسر تحويل تسمياتھا إلى مراكز الدراسات، وتحويل تسمية منظريھا من المستشرقين إلى خبراء الشرق الأوسط

(1) - إدوارد سعيد، خيانة المثقفين : النصوص الأخيرة، ترجمة : أسعد الحسين ( دمشق : دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 2011 )، ص : 277 .

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام..أ. ياسين حامي

وشمال إفريقيا، "كان الاستشراق نقلة إدوارد سعيد الحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخيلية خدمت السياسات الاستعمارية وشكلت جزءاً لا يتجزأ من مناخات صعود الإمبريالية... وبهذا المعنى يكون كتاب الاستشراق ممارسة بالغة الجدوية والأصالة للتحليل النقدي النصي من جهة أولى، وسلسلة تأملات إستيمولوجية معمقة حول محنة الثقافات بالعلاقة مع الأساليب العامة وإجراءات الخطاب الثقافي من جهة ثانية..."<sup>(1)</sup>

وقد اعتبر إدوارد سعيد كتاب الاستشراق مساهمة في إعادة قراءة التراث الإنساني بعيداً عن القولية العنصرية التي طبعت الاستشراق الحديث، وبعيداً عن القولية الفكرية التي طبعت مناهج الحداثة، ولم يكن غرضه من هذا الكتاب إنشاء قوالب فكرية وعنصرية جديدة، فيقول: "وإذا كتب لهذا الكتاب أن يعود بفائدة ما في المستقبل، فسوف تنحصر هذه الفائدة في كونه مساهمة متواضعة في ذلك التحدي، وفي كونه تحذيراً يقول ما أسهل إنشاء بعض النظم الفكرية مثل الاستشراق وضروب خطاب السلطة والخرافات الإيديولوجية وهي أصفاد يصنعها العقل، وما أسهل تطبيقها والحفاظ عليها، وأرجو أن أكون قد أوضحت لقارئتي أن الرد على الاستشراق ليس الاستغراب، ولن يجد من كان شرقياً يوماً ما تسرية في القول بأنه ما دام شرقياً هو نفسه فمن المحتمل أن يدرس شرييين جدداً أو غربيين من ابتكاره الخاص، وإذا كان لمعرفة الاستشراق أي معنى فإنه التذكير بالتدهور المغوي للمعرفة، أية معرفة في أي مكان، وفي أي زمان وربما يصدق هذا على العصر الحاضر أكثر مما صدق على العصر الماضي"<sup>(2)</sup>.

### النقد الثقافي في كتاب تغطية الإسلام :

(1) - إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة : صبحي حديدي ( الطبعة الأولى ؛ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996 )، مقدمة المترجم، ص : 24 .

(2) - إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، مصدر سابق، ص : 497 .

وفي كتابه تغطية الإسلام لا يخرج إدوارد سعيد عن مناهج ما بعد الحداثة في إعادة صياغة النظرة الغربية الشمولية التي رسمتها وسائل الإعلام الغربية المعاصرة حول الإسلام، ويتوجه إلى نقد الثقافة الإعلامية، التي استمرت في نفس نهج الاستشراق تشيطن الشرق وتركز أكثر على العالم الإسلامي، وفي تفكيكه للخطاب الإعلامي يصل سعيد إلى البنى التحتية والدوافع الحقيقية التي توجه الإعلام في تصويره للإسلام، ويبحث عن أسس شبح الإسلام الذي رسمه الإعلام الغربي، ولم يكن دافع سعيد في ذلك الدفاع عن الإسلام كدين يتعرض للتشويه، بل كان دافعه هو تقويض الأسس الأيديولوجية والخلفيات السلطوية التي بني عليها توجه الإعلام الغربي وهذا تماشياً منه مع توجهات ما بعد الحداثة .

ففي كتاب تغطية الإسلام يفكك سعيد المصطلح الجديد الذي ظهر على وسائل الإعلام الغربية فبعد أن كان التخويف في وسائل الإعلام الغربية قائماً على الخطر الشيوعي انتقل التخويف إلى خطر آخر هو الإسلام، وذلك بعد أن رأى الغربيون ارتباطهم بالعالم الإسلامي منذ السبعينيات، وكذلك بسبب إحساسهم بالخطر الذي يتهددهم بسبب نقص مصادر الطاقة وارتباط هذه المصادر بالعالم العربي وارتفاع أسعار المواد الطاقوية في الغرب، وزاد من تغذية الصورة النمطية للإسلام في الغرب أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران وانتصار الثورة الإيرانية على حكم الشاه، وهذا ما ارتبط بالتخويف الإعلامي من عودة الإسلام<sup>(1)</sup>.

وكما اعتمد سعيد على النقد الثقافي في كتاب الاستشراق يعتمد على نفس التوجه في تغطية الإسلام، ويقوم بتفكيك مصطلح الإسلام وفق الاستعمال الذي يشيع في وسائل الإعلام ليصل إلى أن هذا المفهوم الإعلامي لا أساس له

(1) - أنظر: إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني ( الطبعة الأولى ؛ القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع، 2005 )، فصل : تصوير الإسلام في الأخبار .

وأنه لا ينطبق على الدين الإسلامي إلا من أفق سطحي، لأن العالم الإسلامي لا يمكن حصره في الصورة الإعلامية السطحية التي يقدمها الإعلام الغربي، فالعالم الإسلامي مترامي الأطراف ومتعدد البلدان ويشكل سكانه نسبة معتبرة في العالم، كما تتعدد الثقافات داخل هذا العالم وتختلف باختلاف الدول والشعوب، وهذا ما ينفي الحصر الضيق الذي تحاول وسال الإعلام الغربية تقديم الإسلام وتوضيحه لشعوبها في إطاره<sup>(1)</sup>.

ويلاحظ إدوارد سعيد أن وسائل الإعلام الغربية أعطت نظرة سطحية للمجتمعات الغربية حول الإسلام، هذه النظرة التي غدت العداء الثقافي، والتخويف من عودة الإسلام رغم أن ظاهرة العودة تنطبق كذلك على المسيحية واليهودية في شكل الفرق والطوائف الدينية، دون أن تثير ردود أفعال كالتي تثار حول الإسلام " وهكذا تعد الحمية الدينية تنسب إلى أي دين سوى الإسلام، حتى بعد انتشار المشاعر الدينية الفياضة وبروزها في كل مكان، ويكفي أن نذكر كيف أسرفت الصحف المتحررة في الحديث عن الشخصيات الدينية التي تقرر بعدم تحررها مثل سولجنستين أو البابا يوحنا بولس الثاني حتى ندرك مدى الانحياز في الموقف العدائي تجاه الإسلام، وهكذا أيضا تمكن الغربيون من تفسير سلوك معظم الدول الإسلامية قائلين إنه يمثل تقهقرا للاحتماء بالإسلام، من المملكة العربية السعودية التي رفضت المصادقة على اتفاقيات كامب ديفد فافترض المعلقون أنها لجأت في ذلك إلى تطبيق منطق إسلامي خاص، إلى باكستان وأفغانستان والجزائر، وهكذا نرى كيف أصبح العالم الإسلامي يختلف في العقل الغربي بصفة عامة وفي عقل الولايات المتحدة بصفة خاصة عن سائر مناطق العالم التي يمكن تحليل مواقفها من زاوية الحرب الباردة"<sup>(2)</sup> لأن ذكره يرتبط بمصادر النفط .

(1) - أنظر : المصدر نفسه .

(2) - المصدر نفسه، ص : 114 .

وينتقد إدوارد سعيد الأسلوب الاستهلاكي للتغطية الإعلامية الذي لا يتعمق في تحليل الأحداث بل يكتفي بالنقل السطحي لكليشيهات حول الأحداث والوقائع، وهذا ما غذى السطحية في نظرة الغربي إلى العالم الإسلامي، وكمثال على ذلك في أزمة الرهائن، وصل في اليوم الأول ثلاثمائة صحافي أجنبي إلى طهران لا احد منهم يجيد الفارسية<sup>(1)</sup>،

وفي عالم اليوم الذي يتميز بالتعقيد يرفض سعيد الصورة النمطية التي تصور بها وسائل الإعلام الغربية الإسلام، هذه الصورة التي تتغذى بمخلفات ما بعد الاستعمار، وبالنظرة المتعالية التي تجعل من الإسلام آخرا ومغايرا لا يمكن أن يكون في مصاف الدول المتقدمة وأنه يحتاج إلى التحديث، ومصطلح التحديث هو الذي وجه نظرة وسائل الإعلام في قضية شاه إيران سواء في سؤدده أو في سقوطه<sup>(2)</sup>.

ويربط سعيد بين الصورة النمطية التي ترسمها وسائل الإعلام في الغرب للإسلام وبين الموروث الثقافي الذي ارتبط بتصوير الإسلام كعدو رئيسي، فمازالت كتابات المستشرقين تؤثر في توجيه الرأي العالم في الغرب في نظرتهم إلى الإسلام، وينتقد سعيد ارتباط الدراسات حول الإسلام بالمصالح الاقتصادية وشركات النفط، هذا الارتباط الذي يفقدها مصداقيتها ويوجهها نحو خدمة الأقوى، فتفقد الدراسات أسسها المعرفية الحقيقية، وتتوجه إلى معالجة المواضيع الهامشية أو ذات التأثير العملي المباشر على المصالح الاقتصادية، وهذا ما يمنع من الفهم الحقيقي العميق للعالم الإسلامي، وقد طغى هذا الاتجاه الاستهلاكي على الدراسات الموجهة إلى العالم الإسلامي فغطى على النزرة اليسير من الدراسات الأكاديمية التي تتعمق في فهم العالم الإسلامي، " ومن الجدير بنا في هذا السياق أن ننظر في أساليب انتفاع واضعي الاستراتيجيات

(1) - أنظر : المصدر نفسه، الفصل الثاني : قصة إيران .

(2) - المصدر نفسه، الفصل نفسه .



أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشراقية للإسلام.. أ. ياسين حامي

السياسية الجغرافية والمثقفين الليبراليين بصورة الإسلام في الولايات المتحدة، فليس من قبيل المبالغة أن نقول إن ذكر الإسلام نادرا ما كان يرد في المجالات الثقافية أو الإعلامية قبل الارتفاع المفاجئ في أسعار النفط الذي أعلنته منظمة أوبيك في أوائل عام 1974، كنا نشاهد ونسمع عن العرب والإيرانيين، وعن الباكستانيين والأتراك، ولكنه كان من النادر أن يشير أحد إلى المسلمين، لكن الارتفاع الهائل في تكلفة النفط المستورد أصبح يرتبط في عقول الجماهير بمجموعة من الأمور الكريهة...<sup>(1)</sup>.

ويبين إدوارد سعيد أن غرضه من نقد استعمال مصطلح الاسلام في الغرب لا يعني تصديه للدفاع عن الدين الإسلامي، ولا للممارسات التي ترتكب في العالم الإسلامي باسم الإسلام والديانة الإسلامية منها بريئة مثل تسويق الاستبداد السياسي بالدين الإسلامي، فغرض سعيد يتفق مع توجهه ما بعد الحدائي العام إلى تقويض المصطلحات التي تحاول قولبة الفكر في قوالب مطلقة .

ويربط إدوارد سعيد بين التوجهات التي تحكم تصوير الإعلاميين الغربيين والأكاديميين الغربيين للإسلام وبين السلطة السياسية في بلادهم، فالتعمق في فهم الخطاب المعادي للدين الإسلامي يبين ارتباطه بالسلطة السياسية وتفكيك وتشريح هذه العلاقة مما يساهم في فهم الأسس الحقيقية للمعارك الكلامية التي تثار في كل مرة، ولا بد من التعمق فيها لفهم دوافعها السياسية مهما ادعى أصحابها من موضوعية علمية<sup>(2)</sup>.

فالكلام عن الإسلام في الغرب يخضع لموجهات سياسية واقتصادية واجتماعية، ولا يمكن بأية حال إنكار هذه الدوافع، بل إن تغطية الإسلام في

(1) - المصدر نفسه، ص : 118 .

(2) - أنظر : سعيد إدوارد، خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة، ترجمة : أسعد الحسين (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، 2011).

أسلوب النقد الثقافي عند إدوارد سعيد وأثره في إعادة ياغة النظرة الإستشرافية للإسلام..أ. ياسين حامي

الغرب يمكن أن تبين الدوافع الحقيقية الاقتصادية والسياسية في حال تحليل وتفكيك خطاب صاحبها، لذا نجد أن الكلام على الاسلام في وسائل الإعلام الغربية يتلون بحسب تغيرات الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الغرب .

ويسعى إدوارد سعيد جاهدا لربط المقولات التي تصدر حول الإسلام بالفئات والجماعات التي تصدرها، فكشف الترابط بين المقولة وبين أصحابها يبين الدوافع الحقيقية لهذه المقولات، فارتباط تشويه الإسلام بالدوائر الأكاديمية أو السياسية أو الإعلامية يصب كله في غايات يثبت الواقع تحققها لأصحابها، وقد تكون هذه الغايات هي توجيه الرأي العام نحو كراهية الإسلام والعنصرية ضد العرب والمسلمين كما قد يكون الغرض منها، تبرير التدخل في الدول الإسلامية، الذي يتستر بمبررات ظاهرية بينما يرتبط في الباطن بدوافع سياسية واقتصادية<sup>(1)</sup>.

وقد هدف إدوارد سعيد من خلال كتابه تغطية الإسلام إلى نقد التصور العام الذي نشره الخبراء والاستراتيجيون والإعلاميون في الغرب، هذا التصور الذي لا يتفق معه إدوارد سعيد، والذي يمكن تجاوز تأثيره باستعمال الحاسة النقدية التي تمكن من تجاوز الخطاب العام الذي ساد في تغطية الإعلام الغربي للإسلام، وهذا ما يطالب به إدوارد سعيد المثقف الذي يصطلح عليه بالهاوي، بمعنى البعيد عن الاستغلال الإيديولوجي في صراع القوى الواقعية، " فالمثقف المعاصر الذي يعيش في زمن اختلطت فيه الأمور بسبب غياب ما يبدو أنه يمثل المعايير الخلقية الموضوعية والسلطة العاقلة يواجه السؤال التالي، هل يقبل المرء ببساطة أن يدعم دعما أعمى كل ما يفعله بلده ويتغاضى عن جرائمه، أم يقول بدرجة ما من الفتور إن جميع الأطراف تفعل ذلك، وهذا حال الدنيا؟ أما الذي لا بد أن نقوله بدلا من هذا فهو إن المثقفين أو المفكرين ليسوا من

(1) - المصدر نفسه، المعرفة والتفسير، ص : 319 .

محترفي المهنة الذين يصيبهم الفساد بسبب خدمتهم القائمة على الملق والمداهنة لسلطة تعيها مثالب خطيرة ولكنهم ولأكرر ما قلته سلفا مفكرون يقفون موقفا قائمار على المبادئ، ويعتبر موقفا بديلا يمكنهم في الواقع من قول الحقيقة للسلطة"<sup>(1)</sup> .

#### الخاتمة:

ومن خلال تتبع أسلوب النقد الثقافي الذي اعتمده إدوارد سعيد والذي يصب في الإطار العام لأساليب ما بعد الحداثة ، يتبين أن النقد الإيديولوجي المذهبي الذي كان تابعا لمفاهيم الحداثة الغربية قد وجد ما يعارضه، هذه المعارضة التي وإن لم تخرج عن الإطار العام لنظرة الفكر الغربي إلى الآخر إلا أنها أقل حدة إذ تترك مجالاً للاختلاف والتعدد، ولا تسعى إلى التميظ والقولبة التي تنفر منها بسبب الخلفيات الفكرية التي تنطلق منها مناهج ما بعد الحداثة، والتي تحمل روح الثورة على قيم الحداثة بسبب الإفرازات السلبية التي خلفتها الحداثة في القرن العشرين، فالتعامل مع أساليب ما بعد الحداثة يعني التعامل مع مجال أكثر مرونة من المناهج الحداثية التي نشأ في ظلها الاستشراق الغربي، والتي قامت على نزعة المطلقية العلمية، وحاولت صهر كل التراث الإنساني والمجتمعات الإنسانية في هذا الإطار، ولعل إعادة صياغة النظرة إلى الإنسان الآخر التي تبناها إدوارد سعيد مما يفسر الأثر الكبير لفكره في توجهات ما بعد الحداثة الغربية ويفتح مجالاً لدراسات أكثر فعالية في تعاملها مع معطيات الفكر المعاصر .

(1) - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة : محمد عناني ( رؤية للنشر والتوزيع، 2006 )، ص: 162 .